حديث الأربعاء

طه حسين

دار المحروسة للنشر والتوزيع

حديث الأربعاء

حديث الأربعاء

تأليف
طه حسين

حديث الأربعاء

طه حسين

رقم إيداع ٨٠٩٦ / ٢٠١٤
تدمك: ٥ ٨٠٣ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطي من الناشر.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi Foundation for Education and Culture.
Copyright © Taha Hussein 1925.
All rights reserved.

المحتويات

الإهداء	٩
مُقدمة	١١
الجزء الأول	١٥
الفصل الأول	١٧
الفصل الثاني	٢٧
الفصل الثالث	٣٧
الفصل الرابع	٤٩
الفصل الخامس	٦٣
الفصل السادس	٧٣
الفصل السابع	٨٥
الفصل الثامن	٩٧
الفصل التاسع	١٠٩
الفصل العاشر	١٢١
الفصل الحادي عشر	١٣٣
الفصل الثاني عشر	١٤٥
الفصل الثالث عشر	١٥٣
الفصل الرابع عشر	١٦٣
الفصل الخامس عشر	١٧٣
الفصل السادس عشر	١٨٣

الفصل السابع عشر	١٩٥
الفصل الثامن عشر	٢٠٥
الفصل التاسع عشر	٢١٧
الفصل العشرون	٢٢٩
الفصل الحادي والعشرون	٢٤٣
الفصل الثاني والعشرون	٢٥١
الفصل الثالث والعشرون	٢٦١
الفصل الرابع والعشرون	٢٧١
الفصل الخامس والعشرون	٢٨٣
الفصل السادس والعشرون	٢٩٣
الفصل السابع والعشرون	٣٠٣
الفصل الثامن والعشرون	٣١٥
الجزء الثاني	٣٢٥
الفصل الأول	٣٢٧
الفصل الثاني	٣٣٣
الفصل الثالث	٣٣٧
الفصل الرابع	٣٤٣
الفصل الخامس	٣٥١
الفصل السادس	٣٥٧
الفصل السابع	٣٦٥
الفصل الثامن	٣٧٥
الفصل التاسع	٣٨٣
الفصل العاشر	٣٨٩
الفصل الحادي عشر	٣٩٧
الفصل الثاني عشر	٤٠٩
الفصل الثالث عشر	٤١٩
الفصل الرابع عشر	٤٢٩
الفصل الخامس عشر	٤٣٥

الفصل السادس عشر	٤٤٣
الفصل السابع عشر	٤٥٣
الفصل الثامن عشر	٤٦٥
الفصل التاسع عشر	٤٧٣
الفصل العشرون	٤٨٥
الفصل الحادي والعشرون	٤٩٧
الفصل الثاني والعشرون	٥١١
الفصل الثالث والعشرون	٥١٩
الفصل الرابع والعشرون	٥٣٣
الفصل الخامس والعشرون	٥٤٥
الفصل السادس والعشرون	٥٥٩
الجزء الثالث	٥٧١
الفصل الأول	٥٧٣
الفصل الثاني	٥٧٧
الفصل الثالث	٥٧٩
الفصل الرابع	٥٨٣
الفصل الخامس	٥٨٩
الفصل السادس	٥٩١
الفصل السابع	٥٩٣
الفصل الثامن	٦٠٣
الفصل التاسع	٦٠٩
الفصل العاشر	٦١٣
الفصل الحادي عشر	٦١٩
الفصل الثاني عشر	٦٢٩
الفصل الثالث عشر	٦٣٧
الفصل الرابع عشر	٦٤٧
الفصل الخامس عشر	٦٥٣
الفصل السادس عشر	٦٦٥

الفصل السابع عشر	٦٧٧
الفصل الثامن عشر	٦٨٧
الفصل التاسع عشر	٦٩٧
الفصل العشرون	٧٠٣
الفصل الحادي والعشرون	٧١١
الفصل الثاني والعشرون	٧٢١
الفصل الثالث والعشرون	٧٢٩
الفصل الرابع والعشرون	٧٣٥
الفصل الخامس والعشرون	٧٤٣
الفصل السادس والعشرون	٧٥١
الفصل السابع والعشرون	٧٥٩
الفصل الثامن والعشرون	٧٦٩
الفصل التاسع والعشرون	٧٧٧
الفصل الثلاثون	٧٨٣
الفصل الحادي والثلاثون	٧٨٩
الفصل الثاني والثلاثون	٧٩٥
الفصل الثالث والثلاثون	٨٠١

الإهداء

إلى الأستاذ الصديق أحمد لطفي السيد

تجلة تلميذ، وتحية صديق

طه حسين
١٧ يناير سنة ١٩٢٥

مُقدمة

وإِنَّما أُسمي هذه الأسطر مُقدِّمَة؛ لأنَّ النَّاس تَعَوَّدُوا تَسْمِية مِثلها مِثْلَ هذا الاسم؛ فليست هي في حقيقة الأمر مُقدمة، وما كان مثل هذا السفر ليحتاج إلى مُقَدِّمة، وقد قرأ الناسُ فصوله كلها في «السياسة» و«الجهاد» فهم يعرفونها بأنفسهم، ولا يَحْتَاجُون إلى أنْ يُقَدِّمَهَا إليهم أحدٌ، وَمَا كانَ هذا السفر ليحتاج إلى مُقدمة وأنت لا تكادُ تقرأ فصلًا من فصوله إلَّا وجدت فيه مقدمته الخاصة.

ما كان هذا السِّفر ليحتاج إلى مُقدمة فأنا أُسميه سفرًا لا لشيء إلا لأنه مُجلد يجمع طائفة من الصُّحف قد ضُمَّ بعضها إلى بعض، فأنت تستطيع أن تُسميه سفرًا، وأنتَ تَسْتَطِيعُ أنْ تُسميه كتابًا؛ لأنَّ هذه التَّسْمِيةَ صَحِيحَة صادِقَةٌ من الوجهة اللغوية الخالصة، وهي إنْ صَحَّت وصَدقت من هذه الوِجْهة فهي ليست صحيحة ولا صادقة بالقياس إلى الصورة التي أتصورها لما أسميه بحق سفرًا أو كتابًا.

ليست هذه الصحف التي أقدمها إليك سفرًا ولا كتابًا كما أتصور السفر والكتاب؛ فأنا لم أتصور فصوله جملة، ولم أرسم لها خطة مُعَيَّنة ولا بَرْنَامَجًا واضحًا قبل أنْ أَبْدَأ في كتابتها، وإنما هي مباحث مُتفرقة كتبت في ظروف مختلفة وأيام مُتقاربة حينًا ومُتباعدة حينًا آخر، فلستَ تَجِدُ فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المُتَّحدة التي يَصْدُر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأسفارهم، بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأحدثك في غير تحفظٍ ولا احتياط أني مهما أكُن قد تكلفت في هذه الفصول من جهدٍ ومشقة؛ فإني لم أُعْنَ بها العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتابًا حقًّا، إنما هي فصول كانت تنشر في صحيفة سَيَّارة ليَقْرَأها النَّاسُ جَمِيعًا فينتفع بقراءتها من ينتفع، ويتفكه

بقراءتها من يتفكه، ولم يكن بد لكتابتها من أن يُتَجَنَّب التَّعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي، إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا.

ولقد يكون من الحق عليَّ لنَفْسِي وللأدَبِ ولقُرَّاء هذه الفُصول أنْ أَعْتَرِفَ بأنِّي ما كَتَبْتُ منه فصلًا إلا وأنا أعلم أنَّه شديد النَّقص، مُحتاج إلى استئناف العِناية به والنظر فيه، وأنا أقدر أن سيتاح لي من الوقت وفراغ البال ما يُمكنني من استئناف تلك العناية وهذا النظر، حتى إذا فرغت منه ونشرته السِّياسَةُ أو الجِهَادُ عرضتُ لغيره في مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها؛ مُعتزمًا أن أستأنف العِنَاية به والنظر فيه، مُستحييًا أنْ أُقدمه إلى النَّاس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح.

والأيامُ تَمْضِي والظروفُ تَتَعاقَبُ مُختلفة مُتباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين، ولكنها مُتفقة في شيءٍ واحدٍ هو أنها كانت تحول دائمًا بيني وبين ما كنتُ أُريدُ من تجديد العناية، واستئناف النظر؛ وأيُّ الكتَّاب، وأي الباحثين لا يشكو مثل هذا في مثل هذه الأيام التي نعيش فيها؟! أليس كل الناس يحس في هذه الأيام كأنَّ شيئًا قد طَرَأَ على حَرَكَة الزَّمان فأفسد نِظَامَهَا وغَيَّر اطرادها، فهي مُسرعة إلى حدٍّ لم نعهده من قبل ولا نستطيع معه أن ندبر أمورنا، ونقدر حياتنا وحاجاتنا كما نُحِبُّ ونَهوى، حركة الأيَّام أسرع من حركة النفوس، حتى لقد يُخَيَّل إليَّ أنَّ اليومَ في هذا العصر لا يكادُ يعدل ساعات من أيامنا تلك التي قضيناها قبل أنْ تطرأ على مصر هذه الطوارئ السياسية التي تغير فيها كل شيء.

لم أفرغ إذن لهذه الفصول كما يفرغ المؤلف لكتاب، ولم أُعْنَ إذن بهذه الفصول كما يُعنى الباحثُ المُحقق ببحث علمي وأدبي قيِّمٍ، ومع هذا فقد لقيت منَ النَّاس رضًا وصادفت من نُفوسهم هوى، فرَغِبوا إليَّ في أن أَضُمَّ بعضَها إلى بعضٍ وأَجْمَعَها في كتابٍ مُنفرد يمكن حفظه، والتصرُّف به، على غير ما تحفظ الصحف السيارة ويتصرف بها.

ولقد أعرضت عن هذه الرغبة حينًا لا لشيء إلا لأني كنت أرجو أن تُتِيحَ لي الأيامُ شيئًا من فراغ البال، يُمكنني من استئناف النَّظر في هذه الفصول وتهيئتها للجمع والنَّشر، ولكنَّ الأيام لم تُتِح لي ما كنتُ أرجو وما أحسب أنَّها ستتيحه لي قبل أمدٍ بعيد، وأخذ الناس يلحون عليَّ، وتجاوز بعضهم الإلحاح إلى اللوم، فكتب إليَّ ينكر عليَّ أني أذنت بجمع القصص التمثيلية في كتاب، وأبطأت في جمع أحاديث الأربعاء، ويسألني أكان مصدر هذا ازدراء للأدب العربي وإسرافًا في حبِّ الأدب الأجنبي؟ كلا يا سيدي الأستاذ! إنما كان هذا

ضنًّا بالأدب العربي وإكبارًا له أن تُنشر فيه فصول ناقصة شديدة الحاجة إلى الإصلاح، وإذ كنتم قد ألححتم من جهة، وأبت الظروف عليَّ ما كنت أريد من جهة أخرى، فدونكم هذه الفصول كما كتبت وكما نَشَرَتْها السياسة، لم أغير فيها حرفًا، ولم أُضف إليها شيئًا، ولم أصلح مما فيها من الخطأ قَليلًا ولا كثيرًا، قد نَشَرَتْها صحيفةٌ سيارةٌ فأصبحتْ حقًّا لكم فأنا أرد إليكم هذا الحق ولست أسألكم إلا شيئًا واحدًا: وهو ألا تنظروا إليها نظركم إلى كتاب في الأدب العربي قد فرغ له صاحبه وعني بتحقيقه وتمحيصه.

قلتُ: إنَّ هذه الفصول ليستْ مُتَّصلة ولا مُلتئمة ولا خَاضِعَة لهذه الفِكرة المُتَّحدة التي يصدر عنها المؤلفون في تأليف كتبهم، ومع ذلك فقد صدرت هذه الفصول عن كاتب واحد، وذهب فيها هذا الكاتب مَذْهبًا واحدًا، وقصد بها إلى غرضٍ واحد، فهي مُتَّحِدَة مُؤتلفة مهما تَخْتَلِف ومهما تنقصها هذه الفكرة الواضحة المُنَظَّمة المُتَّحدة، فروح الكاتب فيها واضح بيِّن، ومذهب الكاتب فيها ظاهر جلي، وغرض الكاتب فيها لا يحتاج إلى أن يدل عليه، بل اشتركت فيه الدولتان العباسية والأموية، وهي لا تكاد تتجاوز طائفة بعينها من هؤلاء الشعراء، وهم أصحاب المُجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة، وهي لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحي هؤلاء الشعراء جميعًا هي ناحية مجونهم وإسرافهم، وما كان لذلك من أثرٍ في حياتهم العقلية، وما كان بين ذلك وبين الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك البيئة من صلة.

ولعلك تذكر — وإن كنت قد نسيت فستذكر — أن النتيجة الواضحة التي انتهت إليها هذه الفصول كلها هي أنَّ هذا العصر، الذي انْحَلَّت فيه الدولة الأموية، وقامتْ فيه الدولة العباسية، قد كان عصر شك وعبث ومجون، أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مُميزاته.

وأنا أعلم أن هذا لم يعجب الناس ولن يُعجبهم، وأنا أعلم أنَّهم كرهوا وسيكرهون أنْ يعمد كاتب إلى مثل هذه الناحية من نواحي الأدب العربي؛ فيدرُسها درسًا مُفَصَّلًا ويُظهر الناس على دقائقها وأسرارها، ولكني مع ذلك عمَدتُ إليها متى أتيح لي ذلك؛ لأني أعلم أن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما، وأنَّ من الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية ربما كانت أحق من غيرها أن تُدرس ويُعنى بها الباحثون، وما كان لي، ولن يكون لأحدٍ من الباحثين الذين يُقَدِّرون العلمَ وكرامته، أنْ نُغير التاريخ، أو أنْ نُظهر عصرًا من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه.

فنحن لم نخلُق أبا نُوَاس وأصحابه، ونحن لم نُلهمهم اللهو والمجون، ونحن لم نبعثهم على العبث وطلب اللذة، ولكننا وجدناهم كذلك فكُنَّا بين اثنين: إمَّا أنْ نجهلهم، وإما أنْ نَعلمهم، فآثرنا الثانية على الأولى واعتقدنا أن العلم خير من الجهل، وأنَّ الصواب خير من الخطأ، وأنَّ الشجاعة في التاريخ خير من الجبن فيه.

ونحن نعلم حق العلم أن ليس على عقول الناس ولا أخلاقهم خطر من مثل هذه المباحث الأدبية، فالناسُ لم ينتظروا لهو أبي نُوَاس وأصحابه ليعرفوا اللهو، والناس لم ينتظروا هذه الفصول وأمثالها ليعرفوا العبث، ونحنُ لم نكتب هذه الفصول وأمثالها لنحبِّبَ العَبَثَ إلى النَّاس ونُرَغِّبهم فيه؛ فإنَّ في ظروف هذه الحياة التي نحياها مُرَغِّبات في اللهو ومُحَرِّضات على العبث أقوى وأبلغ من لهو أبي نُوَاس، وعبث «مطيع» و«حماد».

قُلْ ما شئت في هذه الفصول، فلن تستطيع أن تنكر أن لها نتيجتين قيمتين؛ الأولى: أنها جلت ناحية من نواحي تاريخ الأدب العربي لم تكن واضحة ولا بَيِّنة، وليس هذا بالشيء القليل. الثانية: أن فيها ضربًا من مناهج البحث أحسب أنَّ الأدباء لو يفهمونه لاستطاعوا أنْ يستغلوا هذه الكنوز القَيِّمة التي لا تَزَالُ مَجْهُولة، والتي نشأ من جهل الناس إياها غضهم من الأدب العربي، وانصرافهم عنه في أنفة وازدراء.

إن الذين يزدرون الأدب العربي، ويغضون منه، يجهلون منه هذا الأدب جهلًا مُنكرًا، وما كان لمن جهل شيئًا أن يحكم عليه.

فكرتُ في هذا كله حين ألح عليَّ المُلحون في نشر هذه الفصول؛ فانتهيتُ إلى أن أذنت بنشرها كما هي، وأنا أرجو أن يكون لها ما أطمع فيه من أثر في فهم الأدب العربي وكتابة تاريخه.

طه حسين

الجزء الأول

الفصل الأول

أثناء قراءة الشعر القديم[1]

قال صاحبي وهو يُحاورني: إنكم لتشقون علينا حين تكلفوننا قراءة شِعْرِكُم القديم هذا، وتُلحون علينا فيه، وتعيبُونا بالإعْرَاض عنه، والتقصير في درسه وحفظه وتذوقه؛ لأنكم تنكرون الزَّمن إنكارًا، وتلغونه إلغاء، وتحسبون أننا نعيش الآن في القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها، ونستطيع أنْ نأتي من الأمر ما كان أهل ذلك الزمان يأتون، وأنْ نحس كما كانوا يحسون، ونشعر كما كانوا يشعرون، ونفهم من أجل ذلك ونذوق ما كانوا يقولون، وأنتم مع ذلك تقرءون التاريخ وتدرسونه.

وكيفَ يَسْتَقِيم لكم درس الأدب إذا لم تُقيموه على إتقان التاريخ والعلم به؟ فأنتم إذن تعرفون أنَّ حياتنا غير حياة هؤلاء النَّاس، وأنَّ أطوارنا غير أطوارهم، وأنَّ الصلة قد انْقطعتْ أو كادت تنقطع بينهم وبيننا، ولا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث، وحمل إلينا الحضارة الحديثة، وما تفرض على الناس من أساليب الحياة والتفكير، فباعد بيننا وبين القدماء، وغير طبائعنا وأمْزِجَتنا وأذواقنا، وجعل الأسباب بيننا وبين المُحدثين من أهل الغَرْب، أدنى من الأسباب بيننا وبين القدماء من أهل نجد والحجاز.

---

[1] نُشرت بجريدة الجهاد بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩٣٥.

فنحنُ يا سيدي نتعلم الإنجليزية والفرنسية فنُتقنها أحيانًا، ويُتاح لنا أنْ نقرأَ الشَّيءَ الكَثِيرَ أو القَليل من آثار الشعراء الإنجليز والفرنسيين والألمان، فنفهم ما نقرأ ونتذوقه، ونجد فيه لذة ومَتاعًا، وغِذَاءً للعُقول والقلوب، لا نحس بيننا وبين هؤلاء الشُّعراء من بُعْدِ الأَمَدِ، واختلاف الطبع والذوق والمِزَاج، مِثْل ما نُحِسُّ بيننا وبين أصحاب شعركم هذا القديم؛ لأننا نحيا حياةً تقارب حياة الشعراء الأوروبيين، ولأننا نستمد عِلْمنا وأدبنا وفننا في هذه الأيام من الينابيع نفسها التي يستمد منها الشعراء الأوروبيون عِلْمَهُم وأدبهم وفنَّهم، ولأنَّ اتِّصال الأمْرِ بيننا وبينهم على هذا النَّحو يُدْنِينا منهم، ويقرب أدبهم إلينا، ويُحدث بيننا وبينهم صلاتٍ يَسِيرَة هَيِّنة، لا مَشَقَّة فيها ولا جهد.

والأيام كُلَّمَا مَضَتْ واتَّصَلَتْ زَادت البعد بيننا وبين شعرائكم هؤلاء القُدماء، والحياة كُلما تَطَوَّرَتْ وتحولتْ زادت في تغييرِ طَبائعنا، وفي تغريبنا، إن صح هذا التعبير.

فكيفَ تُريدوننا على أن نجد في هذا الشعر القديم من اللذة والمتاع ما نبحث عنه فلا نظفر به؟ وكيف تريدون أنْ تفرِضُوا علينا عناء البَحْثِ عَمَّا لا سَبِيلَ إِلَيْهِ، والدرس لما لا نفع في درسه، والحِفْظ لِكَلَامٍ لا تسيغه أفواهُنا حين تَنْطِقُ به، ولا تقبله آذاننا حين يُلقى إليها، ولا يصل إلى نفوسِنا بحالٍ من الأحوال؟

إنكم لتضيعون وقتكم ووقتنا في غير نفع، وإنكم لتكلفون أنفسكم وتكلفوننا ضروبًا من الجهد العنيف في غير طائل، ولو أنكم تُقدرون الوقت، وتعرفون للجهد الإنساني قيمته، لوضعتم شعركم القديم هذا حيثُ أرادت الحَياةُ أنْ تَضَعَهُ، فقصرتم درسه وفهمه وتفسيره على هؤلاء العُلماء الإخصائيين، الذين يفرغون لما يُلائم ذوقهم من ضروب العلم، فيُعنون به، وينفقون جهودهم فيه، يبتغون لذَّتَهُم الخَاصَّة، ويَبْتَغُون ما يُسَمُّونه خِدْمَة العِلْمِ، وإحياء التاريخ، وما ينبغي لأحد أن يلوم رجلًا في العناية بالشعر الجاهلي، أو يصده عن هذه العناية، ما دام في الناس من ينفق الوقت والجهد والمال في جمع طوابع البريد وما يُشبهها من هذه السخافات، التي يتهالك على جمعها أصحاب الثراء والدعة والفراغ.

رفقًا بالشباب، لا تفرضوا عليهم الترف فرضًا، ولا تكلفوهم ما لا يُطيقون، ولا تأخذوهم بما تُحبون أنْ تأخذوا به أنفسكم؛ فإنَّ الإغراقَ في نوعٍ من أنواع التَّخَصُّص خُروجٌ عَمَّا أَلِفَ النَّاسُ، ومَا يَنْبَغِي أنْ يخرج الناس جميعًا عما ألف الناس.

لا تفرضوا شعركم الجاهلي، بل شعركم القديم، على الطلاب والتلاميذ، فليس هذا الشعر منهم، وليسوا هم من هذا الشعر في شيء، علموهم ما يستطيعون أن يتعلموا،

وخذوهم بحِفْظ ما يَستطيعون أن يحفظوا، ولا تفسدوا عقولهم وأذواقهم بتكليفهم ما لا يُطيقون.

وكان صاحبي يقول هذا كله في صوتٍ حازم، ولهجةٍ حادة، وحَمَاسة تكاد تبلغ العنف، ونشاط لم يقتصر على نفسه المُفكرة العاقلة، وإنما تجاوزها إلى جسمه أيضًا، فكان كثير الحركة والاضطراب: يقوم ويقعد، ويتلفت إلى يمين وإلى شمال، ويُحَرِّك يديه وذراعيه حركات عنيفة مُختلفة، كأنه كان خطيبًا يُريد أن يُقهر الجماهير.

ولستُ أُخفي عليك أني أنفقتُ كثيرًا من الجهد، وتكلفتُ كثيرًا من العناء، لأرده إلى شيءٍ من الهدوء ولأقنعه بأن من حقه أن يقول، ولكن من الحق عليه أن يسمع، وأكاد أعترف بأني يئست من حمله على الصمت والاستماع، ولولا أني انصرفت عنه، وهممت بفراقه، لما اتصل بينه وبيني الحديث في هذا الموضوع.

ذلك أنه مُخلص كل الإخلاص في بُغض هذا الشعر القديم المسكين، ويظهر أن بينه وبين هذا الشعر ثأرًا؛ فهو قد كان يلتمسُ مَثَلَه الأدبي الأعلى أول أمره عند القدماء من العرب، وكان في هذا مُتأثرًا بغيره من المُثقفين والممتازين.

وهو قد قرأ بعض الشعر العربي القديم في ديوان الحماسة وغير ديوان الحماسة من كتب المختارات، ففهم وتذوَّق ولكنه لم يرضَ! فاستزاد وأكثر القراءة وأراد أن يتعمق الدرس، وتجاوز الحماسة وأمثالها من الكتب اليسيرة إلى كتبٍ أخرى، أقل يسرًا وأشد إمعانًا في المذهب العربي الخالص في الشعر، فأخذ ينظر في الأراجيز والمفضليات ومطولات الجاهليين، ونقائض الفرزدق والأخطل وجرير.

ولكنه لم يكد يمضي في هذا النظر حتى قامت أمامه صعابٌ وعقاب، لم يجد إلى تذليلها من سبيل، فألفاظ ضَخمة تَنْبُو عنها أذنه وتستغلق معانيها عليه، فإذا حاول فهمها لجأ إلى الشروح والمعاجم، فإذا هذه الشروح والمعاجم مُضطربة، شديدة الاختلاط، كثيرة الاستطراد، وإذن ففهمها ليس أدنى إليه، ولا أيسر عليه، من فهم النَّص الشِّعري الذي يلتمس تأويله وتفسيره.

وقد وقع المسكينُ على شرح ابن الأنباري للمُفضليات، فضلَّ ضَلالًا بعيدًا في هذا الكلام الكثير الذي تخلتط فيه الروايات والأقاويل، ومسائلُ النَّحْوِ، ومَذَاهِبُ اللُّغويين، ثم وقع على النقائض، فلم يكن ضلاله قريبًا، وإنما كان بعيدًا كل البعد، يبدأ القصة فلا يعرف كيف تنتهي؛ لأنه لا يكادُ يتقدم فيها خطوة أو خطوتين حتى يجد نفسه قد دُفع إلى قصة أخرى، ولا يكاد يمضي في هذه القصة الثانية حتى يدفع إلى قصة ثالثة، وهو لا

يكاد يمضي في هذه ولا تلك حتى يجدَ الشِّعر يُروى من هنا وهناك، قد ركب بعضه بعضًا، واختلط بعضه ببعض، ولم تقم في الصحراء أو في هذه الغابات أعلام يهتدي بها إن مضى، ويعتمد عليها إن رجع، فأعرض عن الكتابين إعراضًا، ويئس من الأدب القديم يأسًا، والتمس من كُتب المُحدَثِين ما يُقَرِّب إليه هذا الأدب النافر، ويُذلل له هذا الفن الجامح، فلمْ يَجِد شيئًا.

هنالك فزع إلى الأوروبيين، فوجد من أدبهم ومن نظامه الذي يقربه وييسره ما أرضاه، فأصبح مُبْغِضًا للأدب القديم بطبعه، مُحبًّا للأدب الأجنبي أعظم الحب، ثُمَّ ذكر أنَّ الأدبَ القَدِيمَ كانَ يُفْرَضُ عليه في المدرسة فيحمله من المشقة ما لا يُطيق، ويُبغض إليه المدرسة تبغيضًا، ونظر فإذا الطلاب والتلاميذ ما يزالون يَشْقَوْن بمثل ما كان يشقى به، ويجاهدون في مثل ما كان يُجاهد فيه، وينتهون إلى ما كان يَنْتَهي إليه من العَناء واليأس والإخفاق.

فأصْبَحَ لا يُطيق حديثًا عن الشِّعر القديم، ولا يُطيقُ التَّفكير في أنه شيء يُمكن أن يَدرسه الشباب، أو يفرغ له غير هؤلاء المجانين، الذين يُسمون أنفسهم ويُسميهم الناس علماء.

وقد أطلتُ الحوار مع صاحبي، فلمْ أظفر منه بشيء؛ لأنَّ انصرافه عن الشِّعر القَدِيم، قد أصبح عِلَّة، قد استقرَّتْ في نَفْسِه استقرارًا، تُؤذيه كل الإيذاء، وليس في شفائها أملٌ، ولا إلى إنقاذه مِنْهَا سبيل.

وقد تحدث إليَّ المُتحدثون بأنَّ أمثال صَاحِبي هذا قد أخذوا يكثرون، ويظهر أنهم سيكثرون كُلَّما تَقَدَّمت الأيام؛ لأنَّها، كما قال صاحبي، تُباعد بينهم وبين حياة القدماء، وتَحُول بينهم وبين فهم هذه الحياة، وما كان يصوِّرُها من الأدب القديم.

والناس مفتونون بالسهل، متهالكون على القريب، يكرهون الجهد، ويفرُّون من التَّعب، والحَضَارَةُ الحديثة تُغْرِيهم بِهَذا، فهُم لا يمشون إذا استطاعوا الرُّكوب، وهم لا يتخذون القطار والسفينة إذا استطاعوا اتخاذ الطيارة، وهم يجدون في الأدب الأجنبي الحديث ما يُرضيهم؛ فإنْ أَرَادُوا اللذة الفنية ظفروا بها، وإن أرادوا اللهو انتهوا إليه، وإنْ أرادوا إنفاق الوقت لم يجدوا في ذلك جهدًا ولا عناء.

ومَع أنَّ الجهود التي بُذلت في هذا العصر الحديث لإحياء الأدَب العَربي القَديم لا بَأْسَ بها؛ فقد يجبُ أنْ نَعْتَرِف بِأَنَّها لم تُغنِ عن هذا الأدب القديم شيئًا؛ لأنَّ الحضارة الحديثة تملك من الوسائل ما لا يَمْلِكُه الأدب القديم، فهي تسعى إلينا وتبلغنا من كلِّ وَجْهٍ، وهي

تُلِحُّ علينا إلحاحًا في جميع أطوار حياتنا، وإنتاجها الأدبي لا ينقطع؛ فهو يغمرنا بكثرته، ويغرينا باختلافه، ويفتننا بسحره، ويصرفنا عن هذا الأدب القديم، الذي لا يكاد يسعى إلينا إلا بطيئًا قد أثقلته القرون.

وهو لا يكاد يخطو إلينا خطوة حتى يتعَثَّر في هذه العقبات التي تبثها الحضارة الحديثة أمامه، والتي يتصل بعضها بالعِلْم، وبعضُها بالجَهل، وبعضها بالذَّوق المُترف الرَّقيق، وبعضها بالذوق الخشن الغليظ، وبعضها بما شئت وبما لم تشأ من هذه الخطوب التي تفرضها الحضارة الحديثة علينا فرضًا، فتصرفنا عن كل ما يحتاج إلى الجهد والروية والأناة.

ومعنى ذلك أنَّ الأدَبَ القديم صائر، إذا مضت الأُمور على هذا النحو الذي تمضي عليه، إلى أنْ يُصْبِحَ لونًا من ألوانِ التَّرف، لَا يُعنى به ولا يتوفر عليه إلا الذين يفرغون للتخصص في بعض الفنون، ومع ذلك نُحِبُّ لأدبنا القديم أنْ يَظَلَّ في هذا العصر الحديث كما كان من قبل ضرورة من ضرورات الحياة العقلية، وأساسًا من أُسس الثقافة، وغذاء للعقول والقلوب.

ونحنُ لا نُحِبُّ أنْ يظلَّ الأدَبُ القديمُ في هذه الأيام كَمَا كانَ مِنْ قَبل؛ لأنَّنا لا نُحِبُّ القديم من حيث هو قديم، ونصبو إليه مُتأثرين بعواطف الشوق والحنين، بل نحن نحبُّ لأدبنا القديم أن يظلَّ قوامًا للثقافة، وغذاء للعقول؛ لأنَّه أساسُ الثقافة العربية؛ فهو إذنْ مُقَوِّم لشخصيتنا، مُحَقِّق لقَومِيتنا، عاصمٌ لنا من الفناء في الأجنبي، معين لنا على أن نعرف أنفسنا.

فكل هذه الخصال أمور لا تقبل الشك، ولا يحسن فيها المراء، ولكننا مع ذلك نحبُّ أن يظل أدبنا القديم أساسًا من أسس الثقافة الحديثة؛ لأنه صالح ليكون أساسًا من أُسس الثقافة الحديثة؛ ونُحِبُّ أنْ يَظَلَّ أَدَبُنا القديم غذاء لعقول الشباب؛ لأنَّ فيه كنوزًا قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب.

والذين يظنون أنَّ الحضارة الحديثة قد حملت إلى عقولنا خيرًا خالصًا يخطئون؛ فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًّا غير قليل، لم يأتِ منها هي، وإنَّما أتى مِنْ أَنَّنا لم نفهمها على وجهها، ولم نتعمق أسرارها ودقائقها، وإنما أخذنا منها بالظواهر، وقنعنا منها بالهين اليسير، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل، كما كان التَّعَصُّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضًا.

هذا الشاب، أو هذا الشيخ الذي أقبل من أوروبا يحمل الدرجات الجامعية، ويُحسن الرطانة بإحدى اللغات الأجنبية أو بغير لغة من اللغات الأجنبية، ويَجْلِسُ إليك وإلى غيرك مُنتفخًا مُنتفشًا، مُؤمنًا بنفسه وبدرجاته وبعِلْمِه الحديث، أو أَدَبِهِ الحَدِيث، ثم يَتَحَدَّثُ إليك كأنه ينطق بوحي أبولُّون، فيعلن إليك في حزمٍ وجزم أنَّ أَمْرَ القَدِيمِ قَد انْقَضَى، وأنَّ النَّاس قد أظلهم عصر التجديد، وأن الأدب القديم يجب أن يترك للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ، ويملئون أفواههم بالقاف والطاء وما يُشبههما من الحروف الغلاظ، وأنَّ الاستمساك بالقديم جُمود، والاندفاع في الحياة إلى أمام هو التطوُّر، وهو الحياة، وهو الرُّقي.

هذا الشاب وأمثاله ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة؛ لأنَّه لم يفهم هذه الحضارة على وجهها، ولو قد فهمها لعَلِمَ أنَّها لا تُنْكِرُ القديم ولا تنفر منه، ولا تصرف عنه، وإنما تُحَبِّبه وتُرَغِّب فيه، وتَحُثُّ عليه؛ لأنها تقوم على أساسٍ منه متين، ولولا القديم ما كان الحديث.

وإن بين أدباء الأوروبيين الآن لقومًا غير قليلين، يُحسنون من آداب القدماء ما لم يكن يُحسنه القدماء أنفسهم، ويعكفون على درس الأدب القديم أكثر مما كان يعكف كثير من القدماء، ويُؤمنون بأنَّ اليومَ الذي تنقطع فيه الصلة بين حديث أدبهم وقديمه هو اليوم الذي يَقْضِي فيه الموت على أدبهم، ويُحال فيه بينهم وبين كل إنتاج.

هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحَديثة، أو من ضَحَايا جهل الحضارة الحَديثة، وشره ليس مَقْصُورًا عليه، وإنَّما يَتَجَاوَزُه إلى غيره منَ النَّاس فهو يَتَحَدَّث، وهو يعلِّم، وهو يكتب، وهو في هذا كله ينفث السم، ويُفسد العقول، ويمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد؛ فليس التجديد في إماتة القديم، وإنَّما التجديد في إحياء القديم، وأخذ ما يصلح منه للبقاء.

وأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب مِقْياسًا للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها، فالذين تُلهيهم مَظَاهِرُ هذه الحضارة عن أَنْفُسهم حين تُلهيهم عن أَدَبِهم القديم، لم يَذُوقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها، ولم يفهموها على وجهها، وإنما اتخذوا منها صورًا وأشكالًا، وقلَّدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل.

والذين تلفتهم الحضارة إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم، وتملأ نفوسَهُم إيمَانًا بألا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامي، وبالأدب العربي قديمه وحديثه، عنايتها بما يمسُّ حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة، هم الذين

انتفعوا، وهم الذين فهموا، وهم الذين ذاقوا، وهم القَادِرُون على أنْ ينفعوا في إقامة الحياة الجديدة على أساسٍ متين.

وأراني شغلتُ عن صاحبي وحواره، وعن موضوع هذا الحوار بهؤلاء الذين أفسدهم الأخذ بظواهر الحياة، فجَهلوا القَديم ثم كرهوه، ثم اتخذوا من جهله وكراهته مَذْهبًا يغرون به ويدعون إليه.

على أني قلت لصاحبي فيما قلتُ: إنما أمر الأدب القديم عندي أشبه بحديقة طال عليها الزمن، وأُهْمِلت إِهْمالًا مُتَّصلًا، ولم تنقطع عنها مع ذلك مادَّة الحَيَاة، فمضت أشجارُها وشُجَيْرَاتُها تنمو في غير نظام، هذا النمو المهمل المضطرب، حتى اختلط أمرها اختلاطًا شديدًا، وحتى أصبح من العسير عليك وعلى أمثالك أن تجدوا فيها سبيلًا إلى ما تحبون من النزهة والرَّاحة إلى جمال الزَّهر والشَّجر، فأنتم قد أَلِفْتُم الحدائق التي يتعهدها البُسْتَانِيُّ إذا أصبح، ويتعهدها إذا أَمسى، ويُنَسِّقُها لكم تنسيقًا، ويُمَهِّد الطرق لكم فيها تمهيدًا.

أنتم تريدون الراحة دون أن تتكلفوا في سبيلها التعب، وتلتمسون اللذة دون أن تحتملوا في سبيلها الألم، تريدون أن تسعوا في الحدائق دون أن يعوقكم التفاف الشجر، والتواء الأغصان، وقيام هذه العقبات التي يكلف بها الذين يُحسنون فنَّ النُّزهة، ويتذوقون الجمال الحُرَّ.

أنتم تُريدون أن تُهيأ لكم لذةُ الفن تَهيئة، وأنْ يُوضع لكم الطعام في أفواهكم والعلم في قلوبكم، وأنا أعرِفُ قومًا يُؤثرون هذه الحدائق الحرة، التي طال عليها الزمن وألحَّ عليها الإهمال، على حدائقكم هذه المُنَسَّقة المُنَظَّمة التي أُعِدَّت لكم إعدادًا.

وأعرف قومًا لا يظفرون بهذه الحدائق المُهملة فيبتكرونها لأنفسهم ابتكارًا، ويتكلفون إهمال حدائقهم، وإرسال ما ينبت فيها من الشجر والنجم على سجيته، ليتهيأ لهم بعد زمنٍ يقصر أو يطول، أن يجدوا في طريقهم أشجارًا مُلتفة، وأغصانًا مُلتوية، وعقبات خضراء، يضطرون إلى أن يُزيلوها بأيديهم، ويتعرضونَ لأنْ يُصيبهم منها قليل من الأذى أو أكثر.

أعرف هؤلاء الناس، وأحبُّ أن أكون منهم، ولستُ أخفي عليك أني إذا لم أكره الأدب السهل المُيَسَّر فإني أوثر عليه الأدب الصعب الذي يُكلفني مَشَقَّةً وجهدًا لأفهمه وأذوقه، وإذا كان شِعْرُنا القَدِيم يمضك ويُؤذيك، وإذا كانت كُتُبنا القَدِيمة التي أُلِّفت لشَرْحِ هذا الشَّعر وتفسيره تثقل عليك؛ فإني أجد في هذا الشعر، وفي هذه الكُتب، مَتاعًا لا أَجِدُه في

هذا الأدب الحديث الذي تؤثره وتتهالك عليه، والذي أحبه ولكني لا أوثره بالحبِّ، ولا أَخْتَصُّه بالعناية، ولا أرى أنه كل شيء.

وقلتُ لصَاحبي فيما قلتُ: إنَّ ما يَصرِفُك عن الشِّعر القديم يُغريني به، وما يُزَهِّدك فيه يدفعني إليه؛ فأنت تكره هذه الألفاظ التي تكلفك البحث في المعاجم، وأنا أحبُّ هذه الألفاظ؛ لأنَّها تُكلفني البحث في المعاجم، وأنت تكره هذه الشروح التي تختلط فيها الروايات، ويكثر فيها الاستطراد، وتنبثُّ فيها مسائل النحو، وأنا أُحب هذه الشروح لنفس هذه العلل.

وأنا أعلم أن الناس جميعًا لا ينبغي أن يُؤخذوا بما آخذ به نفسي، وأنَّ الناس جميعًا لا ينبغي أن يكلفوا قراءة شرح ابن الأنباري للمفضليات، وأعلمُ أيضًا أنَّ العِلم بهذه الأشياء يجب أنْ يكون مَقْصُورًا على عددٍ لا بأس به من العلماء، ولكني أعلم مع هذا أنَّ هؤلاء العُلماء لا ينبغي أنْ يُؤثروا أنفسهم بالعلم، وأن يحتكروه من دون الناس، وإنَّما يجبُ عليهم أنْ يتعبوا لتستريح أنت وأمثالك، وأن يَشقوا لتَسْعَد أنت وأمثالك، وأن يستخرجوا لكم من هذه الحدائق القديمة المُهملة، التي طال عليها الزمن، وبَعُدَ بها العَهدُ، زهرات لا تستطيعون أنتم أن تخرجوها، فمن يدري لعلَّ هذه الزَّهرات أنْ تُعْجبكم، ولعلها أن تُغْريكم بمصادرها، ولعلَّها أن تُثير في نفوسكم شيئًا من النشاط والغيرة، وتدفعكم إلى أن تُخاطروا بالسعي بين هذه الأشجار المُلتفة، والأغصان الملتوية، لتستخرجوا مثل ما يخرجه لكم العلماء من الزهر والثمر.

وأنا أبيح لك كلَّ شيءٍ إلَّا أنْ تَزْعُم أنَّ حَدِيقتنا المُهملة قد أماتها الإهمال، وأذواها طولُ الزَّمَن، فلم يبقَ لها حظٌّ مِنْ حياة، وأنا أُبيحُ لك كل شيء إلا أنْ تزعم أن أَدَبَنا القديم قد ماتَ لأَنَّه قديم؛ فأنتَ إنْ زعمت ذلك، تزعمه عن جهل؛ لأنك لم تسعَ في حديقتنا، وإنما صدَّك عنها مَظْهَرُها المُهمل المضطرب، الذي اشتد فيه الاختلاط، فإن كنت في شك من ذلك فالأمر بينك وبيني يسير، فتعالَ نَقْضِ مَعًا ساعة أو بعض ساعة مُتنزهين في طرف من أطراف هذه الحديقة المُهْمَلة، ولك عليَّ أَلَّا أُمْعِنَ بك فيها إمعانًا، وأن أهوِّن عليك أمر هذه النُّزهة ما استطعت تهوينه؛ فإنْ رَجَعْتَ مِنْها أسفًا فأنا المُخطئ، وأنت المُصيب.

قال صاحبي: فإني قد قبلت، وإنْ كنتُ أعلمُ حقَّ العِلْمِ أنَّك ستكلف نفسَك وتُكلفني معك مشقة لا طائل فيها ولا غناء، ولكنِّي أُريد أن أُقيم عليك الحُجَّة، وأكرهك على أن تعترف بالحقِّ، وأضطرك إلى أن تُعلن أن شعركم القديم قد بَلِي فلم يصبح لنا فيه أرب.

قلتُ: لا تعجل، ولكن في أي طرف من أطراف الحديقة تُريد أن نَقْضِي سَاعة من نهار؟ قال: تخيَّر أنتَ فما ينبغي لي أنا أن أختار، قلتُ: فإني أختار أشد أطراف الحديقة اضطرابًا وأكثرها اختلاطًا، وأبعدها عهدًا بالمُحدَثين، وأريد أن نقضي ساعة أو بعض ساعة مع شاعر من هؤلاء الشُّعراء الذين يسمونهم الجاهليين، ننظر في قصيدة من هذه القصائد التي يُسمونها المُعلقات.

ثم تَمَّ الاتِّفاقُ بيننا على أن يكون يوم الأربعاء من كل أسبوع مَوعِدًا لهذه النُّزهة في صحراء الأدب الجاهلي، التي يراها الناس صحراء، وأراها أنا حديقة من أجمل الحدائق وأروعها، وسنرى كيف يكونُ حكم صاحبي، وكيف يكونُ حكم القراء حين يقرءون ما يكونُ بينه وبيني من حوارٍ أثناء هذه النُّزهة القصيرة؟